

نساء في الإسلام

* * *

السَّيِّدَةُ صَفِيَّةٌ

رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا

نجلاء شوقي حسن

السَّيِّدَةُ صَفِيَّةُ

رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا

دَخَلَ السَّيِّدُ أَحْمَدُ حَجْرَةَ ابْنَتِهِ عَبِيرَ ، فَوَجَدَهَا
تَجْلِسُ إِلَى مَكْتَبِهَا الصَّغِيرِ ، تَقْرَأُ إِحْدَى
الْمَجَلَّاتِ ، فَهَزَّ رَأْسَهُ وَقَالَ مُبْتَسِمًا :

— أَرَى ابْنَتِي الْحَبِيبَةَ قَدْ مَلَّتْ اسْتِذْكَارَ
دُرُوسِهَا ، وَأَرْجُو أَنْ تَتَذَكَّرَ أَنَّ الْأُمْتِحَانَاتِ
أَصَبَحَتْ عَلَى الْأَبْوَابِ .

فَضَحِكَتْ عَبِيرُ وَقَالَتْ وَهِيَ تَقُومُ عَنْ
مَقْعِدِهَا .

مَفْهُومٌ يَا وَالِدِي الْعَزِيزَ ، وَكُلُّ مَا هُنَاكَ أَنِّي
اسْتَقَطَعْتُ بَعْضَ الْوَقْتِ ، لِتَجْدِيدِ النَّشَاطِ .

قالت ذلك وأسرعت تضمُّ أباهما وتقول :

— أتعلمُ يا والدي أنَّ ابنتك العزيزة جدًا ،
تنقصُها المعرفة ، ومعلوماتٌ عظيمةٌ الأهمية ،
وقد اكتشفتُ هذا وأنا أقرأ عن مُسابقةٍ في
المِجلَّة ، بها عدَّةُ أسئلة ، وكان السؤالُ الأوَّلُ
أصعبَها جميعًا ، وقد استهلك كلَّ وقتي لمعرفته
دونَ جدوى ، فهل يُرضيك هذا يا أبى ؟

قالَ أبوها : وما هو ذلك السؤالُ يا ابنتي ؟
قالتُ وهى تُعيدُ قراءته من صفحةِ المِجلَّة ،
صَحَابِيَّةٌ جَلِيلَةٌ ، ماتَ شقيقُها شهيدًا ، وابنها
صَحَابِيٌّ جَلِيلٌ ، وهى قُرَشِيَّةٌ هاشِمِيَّةٌ ، وفارِسةٌ
شُجاعَةٌ .

هذا كلُّ ما فى السؤالِ يا أبى .

قال أبوها : وما هو المطلوب مني الآن ؟
 قالت : المطلوب منك الآن ، أن تجيب عن
 هذا السؤال ، وتعرفني بهذه الشخصية ،
 وتحكي لي حكايتها .

قال أبوها : لا مانع عندي .
 ثم قال : هذه الشخصية هي صفية بنت عبد
 المطلب ، بن عبد مناف ، عمّة رسول الله —
 صلى الله عليه وسلم — ، وأبوها عبد المطلب
 هو زعيم قريش ، وأمها هي هالة بنت وهب .
 وقد نشأت صفية في بيت عبد المطلب سيد
 قريش وزعيمها وصاحب المجد والشرف .
 فتكوّنت شخصيتها القويّة ذات النفوذ ، في
 هذه الأسرة العريقة الحسب والنسب ،

فنشأت فصيحةً بليغة ، وفارسةً شجاعة ، تركبُ
 الخيل ، وتُقاتلُ بالسيفِ والرُمح .
 وقد تزوجت السيِّدة صفيةً مرَّتين ، فكانَ
 زوجها الأوَّلُ هو الحارثُ بنُ حرب ، ولكنَّه
 مات ولم تُنجبْ منه ، ثُمَّ تزوجها العَوَّامُ بنُ
 خُوَيْلِد ، أخو السيِّدة خديجة بنتِ خُوَيْلِد ،
 فرزقتْ منه بابنِها الزُّبير بنِ العَوَّام ، الَّذي ماتَ
 أبوه وتركه طفلاً صغيراً ، فتولَّتْ أمُّه تربيتهُ
 وتنشئته ، فكانتِ نعمَ المربيَّة .

إنَّ السيِّدة صفيةً - رضى الله عنها - تعلمُ أنَّ
 الحياةَ العربيَّةَ تلزمُها الرُّجولةُ والفروسيَّة ، لذلك
 فقد ربَّت ابنتها على الخشونة منذ الصَّغر .
 وهكذا نشأ الزُّبير بنُ العَوَّام كما أرادتْ أمُّه أن

يَكُون .

وعندما أشرقت مَكَّةُ بنور الإسلامِ على يدِ ابنِ
أخيها مُحَمَّد - عليه الصَّلَاةُ والسَّلَام - كانت
السَّيِّدَةُ صَفِيَّة ، من أوائلِ الَّذِينَ آمَنُوا بِهِ ،
وَصَدَّقُوا رِسَالَاتِهِ .

وكان قد سَبَقَهَا إِلَى الإسلامِ ابْنُهَا الزُّبَيْرُ بْنُ
العَوَّام - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - وقد بَلَغَ بِهِ حَمَاسُهُ
وَحُبُّهُ لِلدِّينِ اللَّهِ ، أَنْ تَصَدَّى يَوْمًا لِأَحَدِ الْمُشْرِكِينَ
الضَّالِّينَ ، الَّذِينَ هَزَّوْا بِهِ وَبَيَّعَانِهِ ، أَنْ ضَرْبَهُ
وَشَجَّهُ . وَهَكَذَا كَانَ الزُّبَيْرُ بْنُ الْعَوَّامِ كَمَا
أَرَادَتْ لَهُ أُمُّهُ ، فَقَدْ وَصَلَ إِلَى دَرَجَةٍ عَالِيَةٍ مِنْ
الْإِيمَانِ وَالتَّضَحِّيَةِ وَالْفِدَاءِ . وَقَدْ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ

— صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ — إِنَّ لِكُلِّ نَبِيٍّ حَوَارِيًّا ،
وَحَوَارِيَّ هُوَ الزُّبَيْرُ بْنُ الْعَوَّامِ .

وكان رسولُ الله — صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ —
عِنْدَمَا بعثَهُ اللَّهُ بالهُدَى ودينِ الحقِّ لِيُخْرِجَ النَّاسَ
مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ، أَمَرَهُ فِي الْبِدَايَةِ بِأَنْ
يَدْعُو أَهْلَهُ إِلَى الْإِسْلَامِ ، فَقَالَ : ﴿ وَأَنْذِرْ
عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ فجمعَ الرُّسُولُ — صَلَّى اللَّهُ
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ — أَقَارِبَهُ رِجَالًا وَنِسَاءً وَأَطْفَالًا ،
وَدَعَاهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ ، وَحَضَّهُمْ عَلَى التَّصَدِيقِ
بِرِسَالَتِهِ ، وَأَعْلَمَهُمْ أَنَّهُ لَنْ يُغْنِيَ عَنْهُمْ يَوْمَ
الْقِيَامَةِ ، فَقَالَ : (يَا فَاطِمَةُ بِنْتُ مُحَمَّدٍ ، يَا صَفِيَّةُ
بِنْتُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ ، يَا بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ ، إِنِّي لَا
أَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا) وَكَانَتْ لِكَلِمَاتِ

الرَّسُول - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أَكْبَرُ الْأَثَرِ
 عَلَى قَلْبِ السَّيِّدَةِ صَفِيَّةَ ، حَيْثُ عَرَفَ الْإِيمَانَ
 طَرِيقَهُ إِلَى قَلْبِهَا ، فَاِمْتَلَأَ قَلْبُهَا نُورًا وَإِيمَانًا
 وَهُدَايَةً ، وَوَدَّعَتْ حَيَاةَ الْجَاهِلِيَّةِ ، وَبِذَلِكَ كَانَتْ
 مِنْ أَوَائِلِ مَنْ دَخَلُوا فِي دِينِ اللَّهِ عِزًّا وَجَلًّا .
 وَهَكَذَا جَمَعَتْ السَّيِّدَةُ صَفِيَّةُ بَيْنَ شَرَفِ
 النَّسَبِ وَعِزَّةِ الْإِيمَانِ ، بَعْدَ دُخُولِهَا فِي دِينِ
 اللَّهِ . فَاسْتَقْبَلَتْ حَيَاةً جَدِيدَةً ، مَلَأَهَا النُّورُ
 وَالْهُدَايَةُ ، فَهَاجَرَتْ هِيَ وَابْنُهَا إِلَى يَثْرِبَ ، عَلَى
 الرُّغْمِ مِنْ كِبَرِ سِنِّهَا ، فَقَدْ كَانَتْ تَقْتَرِبُ مِنْ
 عَامِهَا السَّتِّينَ ، وَمَعَ ذَلِكَ كَانَتْ لَهَا فِي مَيَادِينِ
 الْقِتَالِ مَوَاقِفُ عَظِيمَةٍ ، مَا زَالَ التَّارِيخُ يَذْكُرُهَا
 فِي صَفَحَاتِهِ بِحُرُوفٍ مِنْ نُورٍ .

ففى يومٍ أُحُد ، كانت فى طليعة النساء اللاتى
خرجن لخدمة المجاهدين وتحميسهم للجهاد ،
ومداواة الجرحى . فلما انهزم المسلمون فى هذه
الغزوة ، عندما خالف الرُّماة أمر الرسول —
صلّى الله عليه وسلّم — بالثبات ، فتركوا
أماكنهم ونزلوا يجمعون الغنائم ، ولم يبق حول
الرسول إلا القلائل من أصحابه ، قامت صفية —
رضى الله عنها — وبيدها رمحٌ تضرب به وجوه
المنسحبين وتقول لهم ؟

— انهزمت عن رسول الله ؟

فلما رآها رسول الله — صلّى الله عليه
وسلّم — أشفق عليها وقال لابنها الزبير بن
العوام :

— القها فأرجعها .. لا ترى ما بشقيقتها

(حمزة بن عبد المطلب) .

فلقيها الزبير فقال :

— يا أمه ، إن رسول الله — صلى الله عليه

وسلم — يأمرُك أن ترجعي .

ف قالت السيدة صفية :

— ولم ؟ فقد بلغتُ أنه مثلُ أخي ، وذلك في

الله عز وجل قليل . فما أرضانا بما كان من

ذلك .

لأحسبن ولأصبرن إن شاء الله تعالى .

وعاد الزبير إلى رسول الله — صلى الله عليه

وسلم — فأخبره بذلك ، فقال عليه الصلاة

والسلام :

— خَلَّ سَبِيلَهَا .

فَأَتَتِ السَّيِّدَةَ صَفِيَّةٌ نَحْوَ جُثَّةِ حَمْزَةٍ ، فَنَظَرَتْ
إِلَيْهِ ، وَصَلَّتْ عَلَيْهِ وَاسْتَرْجَعَتْ وَاسْتَغْفَرَتْ ،
فَأَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ — صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ —
فَدُفِنَ .

وَقَالَتْ تَرْتِيَةٌ — رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا — بَعْدَ دَفْنِهِ :

أَسْأَلُكَ أَصْحَابَ أَحَدٍ مَخَافَةَ

بَنَاتِ أَبِي مِنْ أَعْجَمٍ وَخَبِيرِ

دُعَاءَ إِلَهِ الْحَقِّ ذِي الْعَرْشِ دَعْوَةً

إِلَى جَنَّةٍ يَحْيَا بِهَا وَسُرُورِ

فَوَاللَّهِ لَا أَنْسَاكَ مَا هَبَّتِ الصَّبَا

بِكَاءٍ وَحُزْنًا مَحْضَرِي وَمَسِيرِي

وفى يوم غزوة الخندق « الأحزاب » خرج
 رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وأصحابه
 من المدينة لقتال أحزاب المشركين ، وتركوا
 النساء فى حصن « حسان بن ثابت »
 الأنصارى ، وكان فى جزء من المدينة يعيش فيه
 اليهود ، الذين كان بينهم وبين رسول الله -
 صلى الله عليه وسلم - عهد أمان لا يعتدون
 على المسلمين ، ولا يعتدى المسلمون عليهم .
 وبينما النساء فى قلقهن على المؤمنين الذين
 خرجوا للقتال عند الخندق ، كان رجل من
 اليهود يطوف بالحصن ويتجسس ، وكان من
 بنى قريظة الغادرين الماكرين ، الذين تعاهدوا مع
 رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ، فرأته

السَّيِّدَةُ صَفِيَّةٌ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - فَدَبَّتْ فِيهَا
 الْحَمَاسَةُ ، فَقَامَتْ وَأَخَذَتْ عَمُودًا غَلِيظًا ، ثُمَّ
 نَزَلَتْ مِنَ الْحِصْنِ ، وَفَتَحَتْ بَابَهُ عَلَى مَهْلٍ ،
 وَفِي هُدُوءٍ . وَتَحَيَّنَتْ فُرْصَةً غَفْلَةِ الْيَهُودِيِّ ،
 وَضَرَبَتْهُ بِالْعَمُودِ عَلَى أُمِّ رَأْسِهِ ضَرْبَاتٍ
 مُتَلَا حِقَةً ، فَقَتَلَتْهُ ، ثُمَّ رَجَعَتْ إِلَى الْحِصْنِ . فَلَمَّا
 عَلِمَ الْيَهُودُ بِأَنَّ رَجُلَهُمْ لَمْ يَعُدْ بَعْدُ وَقَدْ فَاتَ مِنَ
 الْوَقْتِ الْكَثِيرِ ، أَدْرَكُوا بِأَنَّ رِجَالَ الْمُسْلِمِينَ
 بِالْمَدِينَةِ لِحِمَايَةِ النِّسَاءِ وَلَمْ يَخْرُجُوا جَمِيعًا لِلْقِتَالِ ،
 فَفَشِلَتْ خِطَّتُهُمْ لِسَرَقَةِ النِّسَاءِ ، وَالزَّحْفِ خَلْفَ
 الْمُسْلِمِينَ .

وَفِي يَوْمٍ غَزَا خَيْبَرَ ، انْطَلَقَتْ صَفِيَّةٌ مَعَ بَعْضِ
 النِّسَاءِ الْمُسْلِمَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ ، يَشُدُّنَ أَزَرَ

المجاهدين ، واتخذن قريبا من ميدان المعركة ،
 مع كعبية بنت سعد الأسلمية ، خيمة يداوين
 فيها جراحات المصابين ، ويقمن على خدمتهم .
 ولقد ضربت السيدة صفية ، أعظم المثل على أن
 المرأة قادرة على إفادة المجتمع في جميع أوقاته ،
 في السلم وفي الحرب .

و حين لحق رسول الله - صلى الله عليه
 وسلم - بالرفيق الأعلى ، كانت صفية - رضى
 الله عنها - من أكثر أهله جزعا وحزنا عليه .
 وعاشت - رضى الله عنها - بعده معززة
 مكرمة ، يعرف الخلفاء والصحابة لها قدرها
 ومكانتها .

ثم توفيت - رضى الله عنها - فى خلافة عمر
ابن الخطاب - رضى الله عنه - سنة عشرين من
الهجرة ، ودُفِنَتْ فى البقيع .

قالت عبيرُ فى دهشة :

- يا لها من قصة شائقة ، لم أسمع بها من قبل .
وهذا يدلُّ على أنَّ هناك حكايات بطولات
كثيرة ، لأجدادنا المسلمين الأوائل لا تنتهى .
قال أبوها فى سرور : أعتقد الآن أنه يُمكنك
الإجابة عن السؤال الصعب .